ن فرنسة تتبع مثل انكلترة سياسة البترول بعد ان وقفت على نتائجها

آن لنا ختم هذه المقالة التي رأينا بها امورًا غريبةً لم تكن في الحسبان ولعلَّ غربها كون وقود جديد لم ينتشر استعماله في المحرّكات الّا في اواخر الجيل المنصرم دا اليوم بل قبل الحرب من اخطر مواضيع سياسة الدول الكبرى الى حدّ كون هذه السياسة وُسمت باسمه .ولا غرو فان اقتناءهُ بكميات وافرة لتعميم استعماله و من اعظم المسائل الحيوية للعمران الحاضر

مديح قديم لمار افرام

وضعهُ القديس غريغوريوس اسقف نيس (تتمّة)

نشرهُ الاب لويس شيخو اليسوعي

٦ عبادة مار افرام ودرسهُ للاسفار المقدّسة

امّا حسن العبادة فاتّجر منها القديس افرام نقيبة الحكمة على ما ذُكر في ايوب (٢٨ : ١٣) عندما قيل : «ها حسنُ عبادتهِ حكمةٌ » الّا انّا قد ذكرنا في معناها وشرحناهُ عند ذكرنا امانتهُ وطهارته اذ اشبه بولس وطلع الى السماء مثلهُ (٢ كور ١٢ : ٢) واقتنى خرًا لا يفنى في بيعة المسيح

امّا درسُ الكتب الالهيَّة فقد أشعل لنفسهِ فيهِ مصباحاً من قول داود (٣٨ : ٤) « انَّ فيَّ تتّقد نارٌ » لأنهُ قد اشتعلت في قلب هذا القديس نارٌ من النظر الالهيّ ألهبت شوقهُ لدرس كلّ كتاب من العهدين العتيق والجديد ففتّش واستقصى وفسّر كلَّ كتاب بلفظهِ من اوّل الخليقة الى ظهور النعمة الاخيرة : وقد اظهر المعاني المكتومة في قعر الكتب (٨١٥) فنشرها وبيّنها وكان الروح القدس سراجهُ في ذلك. لم يشرب كأس الحكمة الروحانيَّة فقط المنعمة من الحكمة الالهيَّة وسقاها لغيره تعليمهِ بل ادرك ايضاً حكمة الكتب المقدّسة البرّانيَّة وما تمتاز بهِ من تقويم اللسان وتقويم المنطق مع ما تكنُّهُ في قعر المعاني فأحكم ذلك كلَّهُ وبالغ فيهِ وما وجدهُ من ذلك نافعاً ضبطهُ وما كان غير نافع اطّرحهُ وقوّم تجارتهُ في العسل والنظر بميزان العدل

٧ طهارة نفسهِ وورَعهُ

واما الطهارة فقد أحكمَ وقوَّم منها في النفس والجسد ما وصلت كلّ الطاقة الطبيعيَّة اليهِ بل قد زاد على قوَّة الطبيعة حتَّى أبانَ ان ذلك كان موهبةً من النعمة فلم يطلق للنفس ان تنحرف وتتراخى في قنية القول المستقيم بل كان على الحقيقة ملكاً في نفسهِ ومتيرًا في احوال جسده. والشاهد على ذلك خبَر تلك المرأة المومسة الزانية التي كان سوَّل لها ابليس قتّال البشر خديعة بعلها المصطبغ بالعمودية الطاهرة. فدفعها هذا القديس عن الوصول الى ما أمَّلهُ منها الشرّير واجتذبها الى ان تصارع ذلك الملعون بمواعظهِ وصلواتهِ (٧٩٦) واقوالهِ الالهيَّة بعد ان نشلها ممَّا كانت عليهِ وصيَّرها عفيفةً بعد ما كانت فاسقة

واما الدموع فاني اذا رمتُ ذكرها وشرح هطلانها وجَريها الدائم من مقلتَيه ربَّما جرت اليَّ دموعهُ اذ لا استطيع ان اخوض لجَّة عبراتهِ فاشرحها بكلامي دون ان تسبَل بذكرها عبراتي. فان افرام ما كان يخلو لهُ وقت دون هطل الدموع لا في نهار ولا في ليل ولا ساعةً بل ولا لحظةً ولا اذكر اني رأيت عينهُ قط ناشفةً بل كان يبكي تارةً جهارًا وتارةً سرًّا وكان يقول انَّ بكاءهُ على زلَّاته. وكان ربَّما يقطع بكاءهُ بتنهُّدات وزفرات وربَّما استدعت الزفرات بكاءهُ فكان بروز هذين الشيئين بالتناوب احدهما سبب للآخر فالزفرات تولِّد فيهِ الدموع والدموع تستدعي الزفرات. وكان السبب في ذلك مجهولًا عند الكثيرين لانَّ الزمان ما كان يفصل فيما (٧٩٧) بينهما بل كانت الدموع دوبًا تتبدَّل بالزفرات والزفرات بالدموع وكان ذلك دورًا دائرًا لا يُعرَف المبتدئ من التابع لها. وللمتأمِّل ان يشاهد ذلك في مؤلَّفاتهِ فيجدهُ فيها باكيًا ليس فقط فيما ألَّفهُ على التوبة واصلاح اخلاق البشر بل فيما كتبهُ ايضًا من المدائح التي تحمل عادةً على السرور والجذل لانَّ هذا القديس كانت صورتهُ واحدة في النعمة التي كان غنيًّا بها فانهُ يدعو سامعي اقوالهِ وبقوَّة نطقهِ الالهيّ المزوج بالدموع الى الحياة الصادقة

فمن يبلغ بهِ العتوّ وتحجُّر القلب الى ان يسمع اقوالهُ فلا يلين ولا يطرح صلابة اخلاقهِ ويرقّ لما يكون قد بَدَرَ منهُ من السيّئات؟ ومن يكون وحشيًّا في خلقهِ وعَربيًّا في مذهبهِ فينصت لشيءٍ من تعليمهِ فلا يبكي على الزمان الذي صرفهُ فيما لا

ينبغي ؟ ومن يكون غليظاً وعديماً من الانسانيَّة فيذوق حلاوة الفاظهِ ولا يسرع الى الخضوع والتآني ومحبَّة الخير ؟ ومن يكون قد ألف السرور واستهال اللذَّات(٧٩٨) والتباعُد عن الدموع والمحزنات ويتأمل قولهُ فلا يبكي ولا ينتحب ويندم على ما سلف من تفريطهِ ويتصوَّر انَّ المجازاة على ذلك منتظرة لهُ ؟ قد قيل في الامثال « أنك انَّما تسلق حجرًا » يقال ذلك في الامور المستهنة ولقد رأينا لعمري تلك الامور المستهنة متسهلة لهذا الرجل القديس لأنَّهُ جاء الى النفوس التي لا خضوع ولا ترتيبَ لها فليَّنها واقنعها بان تنثني وترجع الى الواجبات . ومن ذا الذي يطالع ميمرَهُ الذي قالهُ في التواضع فلا يبغض ويُمقت كلَّ تيه وتجبُّر ويعتبر نفسهُ اذلَّ من كلّ احد ؟ ومن يتلو قولهُ في المحبَّة ولا يحرص ان يصبر على كلّ شيّ في اقتنائها ؟ ومن يقرأ ما ألَّفهُ في البكوريَّة ولا يجتهد ان يكون طاهرًا في نفسهِ وجسمهِ ؟ ومن يتأمل اقوالهُ في يوم الدين وحضور السيّد المسيح فلا يتصوَّر انهُ واقف في ذلك المقام ومطالَب عن اعمالهِ فيقشعرّ ويرتعد من الدينونة الآتية عليهِ ويتصوَّر انهُ ان لم يرتدع تحلّ بهِ ؟ . فهكذا صوَّر الدينونة المستأنفة هذا الرجل (٧٩٩) النبويّ العظيم ووصف ذلك اليوم الرهيب حتَّى انهُ لم يدع شيئاً لم يذكرهُ بل تكلَّم فيهِ حتَّى صار وصفهُ عند الناس كأنهُ تامٌّ بالفعل . ولأنهُ قد كان التخيُّل والتصوُّر لذلك اليوم ولتلك الساعة قد بلغا من هذا القديس اقصى مبلغ كان يهرب من العالم ومن جميع ما فيهِ ويبتعد عنهُ فارًّا نازحاً ويأوي الى البراري والفيافي وينقطع الى التأمل بذاتهِ والى استماع صوت الله فيزيد ترقّياً في الفضائل لعلمهِ انَّ سكنى البريَّة يعتق الانسان ويخلّص من يريد الفرار من الشغب والاضطراب كما انَّ الصمت يجعل الانسان مخالطاً للملائكة متشاغلاً بعباداتهم متعالياً بعقلهِ الى نظر الله بحسب طاقتهِ

٨ تنقُّل القديس وسياحتهُ . دخولهُ الرها وسفره الى قيصريَّة

اما انتقال القديس افرام من موضع الى موضع فانَّ الروح القدس كان يحركهُ الى ذلك لعمارة الكثيرين ولصلاح حالهم فما كان يمانعهُ ولا يخالفهُ لانقيادهِ الى اوامر الله في كلّ شيّ انقياداً لا يشبههُ فيهِ غيرهُ . ومن ثمَّ لمَّا امرهُ الله ان يترك وطنهُ كما أمر ابراهيم الالهيّ اجاب الى ذلك وقصد مدينة الرها لانهُ ما كان (٨٠٠) يليق ان تبقى الشمس محجوبةً تحت الارض . وقد قصد من سفرهِ هذا امرين : احدهما ان

يزور المواضع المقدَّسة التي هناك والآخر ان يجتمع برجل يطابهُ من اهل الكلام فيجتني منهُ ثمرة علمهِ اوبينيلهُ هو من ثمرتهِ . فلما وصل الى باب المدينة التقى بامرأة مومسة بدلًا من رجلٍ من اهل التقى والعلم فخاب املهُ وحصل لهُ من ذلك كأبة فحدَّقت المرأة نظرها اليهِ بوقاحةٍ ونظرهو اليها شزرًا فلمَّا رأتهُ يتأملها قالت : لايّ معنًى ينظر اليَّ هذا الحكيم؟ . فاجاب القديس قائلًا : بل انت يامرأة لأيّ سبب تلقين نظرك اليَّ . قالت : امَّا انا فانني انظر الى الرجال لأني من الرِّجل خُلقتُ . امَّا انت فالاحرى بك ان تجعل نظرك الى الارض التي منها خُلقت . فلمَّا سمع افرام منها ذلك الكلام بخلاف ظنّهِ منها اعترف اعترافًا صريحًا بانهُ قد انتفع من قولها ومجَّد الله الذي يُنطق بالحكمة غير اهلها

ثمَّ سار افرام بعد هذا الى قيصريَّة القبادوق وارشدهُ الروح القدس (٨٠١) الى باسيليوس الكبير الذي هو فم الكنيسة الناطق بالآراء الذهبيَّة . فلمَّا رأى ذلك الشيخ ابتدأ بتكرمتهِ والثناء عليهِ لاسيَّما اذ ابصر بعينهِ الطاهرة حمامةً الهيَّة جاثمة على كتفهِ اليمنى توحي اليهِ بأقوال التعليم وتنقلها منهُ الى الشعب السامع . فعرف افرام ان المتكلِّم هو باسيليوس الالهيّ كما علم باسيليوس باشارة الحمامة انَّ القادم هو افرام السريانيّ . فتمتَّع كلٌّ منهما بصحبة الآخر وعلم افرام انَّ سفرهُ أحظاهُ بمرغوبهِ فلم يَعُد خائبًا

٩ هرب القديس افرام من الموبقات ومواظبتهُ على التعليم

ثمَّ ان طبيعة عقلهِ الصحيح كانت ترشدهُ الى الفرار من المضرَّات والتحفُّظ من الموبقات فكان لا يفتكر الَّا بالاعمال المختارة النقيَّة ويُؤثر ما فيهِ المنفعة ويطرح ما يعوقهُ عن التعاليم الصالحة . لأنَّ المسيح كان قد وهب لهذا الشيخ وَزَنات وافرة من الكلام ليتَّجر بها ويوزِّعها على موائد قلوب المؤمنين . وقد وجب ذلك عليهِ اكثر من غيرهِ لانهُ كان (٨٠٢) يقول انهُ أبصر عند خروجهِ من سنّ الصبا كرمةً نبتت على لسانهِ فنشأت وعظمت حتَّى ملأت الارض واستظلَّ بها كلّ طير السماء . وكانت ثمارها تنمو على قدر ما تُتطَف ويغتذي منها الطيور . وقد ذكر رجل من اهل البرّ رؤيا رآها قال : انهُ رأى جوقةً من الملائكة منحدرين من السماء ومعهم لوح طرس كبير مكتوب عليهِ من الناحيتين وكان الواحد منهم يقول في مصافهِ لصاحبهِ : الى مَن نسلِّم

هذا الطرس ؟ فكان بعضهم يقول: الى فلان وبعضهم : الى آخر . وأما ذكروا جماعة عبيد الله الصالحين قال بعضهم : لعمري انَّ هؤلاء ليس يمكنهم ان يمكوا هذا الطرس . حتَّى اتَّفقت جماعتهم فقالوا : ليس يقدر احد ان يتسلَّمهُ في زماننا غير افرام . فلمَّا انتبه الرجل الذي آثرهُ الله بتلك الرؤيا بكَّر الى (٨٠٣) البيعة سحراً وسمع افرام يعلم هناك بقولٍ غزير موشَّح بالنعمة . فتذكَّر ما رآهُ ووقف على معناهُ ومجَّد الله لِما منحهُ لعبدهِ من تلك الموهبة الفاخرة

ولغزارة ما اناله الله من الحكمة صارت مجاري كلامهِ دائرةً وكانت المعاني تتدفَّق من ذهنهِ حتَّى عجز اللسان عن استيعابها فسأل هذا الشيخُ الكبير طالباً الى الله ان يحصر فيهِ غزارة وحيهِ اليهِ قائلاً : « خفِّف يا ربِّ امواج نعمتك ، لأنَّه كان يراها كاللجَّة التي لا قعر لها فتهيج في صدرهِ ولا تترك لهُ راحةً من كثرة ما كان يتوارد على فكرهِ من الخواطر التي يقصر عن تأديتها اللسان فيقطع كلامهُ بالدعاء ويقطع الدعاء بالدموع (٨٠٤) ولم يكن يشغلهُ شيءٌ في كلّ ذلك الَّا النظر الالهيّ . وذلك انهُ كان قد امات جسدهُ مع لذَّاتهِ وجعلهُ بالنسك والامساك عبداً لرئاسة الفكر لا حراك فيهِ الى ما لا ينبغي لإنهاكهِ بالصوم . الَّا انَّ قوَّتهُ كانت تزيد في النهوض الى الاشياء النافعة التي تفيد خلاص النفس . وما كان الليل يقطعهُ عن الهجود ومجاهدة العدوّ وتعمُّد الفضيلة وما كان النهار يخدعهُ بخيالات اليقظة لأنَّ الليل كان يستلمهُ من النهار صاحياً وكان يخلفهُ بعد انصرافهِ ساهراً فلا يخالج تخيُّلٌ باطل فكرهُ وقت درسهِ . وانَّما كان يتناول من النوم الكفاف لحفظ الحياة لئلَّا ينقلب نظام الطبيعة تماماً فيصيب جسمهُ الاختلال . وكان مع ذلك يطرد النوم عن مقلتيهِ بالهجوع على الحضيض والاضطجاع على الخشن واماتة الجسم في كلّ معنى (٨٠٥)

١٠ زهد افرام بالدنيا وتواضعهُ العجيب

امَّا الزهد في القنية فانهُ بلغ فيهِ مقدار ما نسمع عن الرسل الالهيين فان رام احد ان يسمّيهُ مثالاً لكلّ الزهَّاد فلن يخطئ عن الصواب . ولنا على ذلك شاهد من كلامهِ الحلو اللذيذ الذي قالهُ عند رحيلهِ الى السماء وهو قولهُ : « انهُ لم يوجد قطّ لافرام كيس ولا عصاً ولا مزود ولا فضَّة ولا ذهب ولا غير ذلك ممَّا يُقتنى على الارض (متَّى ١٠ : ٩) لاني سمعتُ من الملك الصالح في الانجيل المقدَّس وهو يقول لتلاميذهِ : لا تقتنوا

شيئاً على الارض فلم يكن لهم شيء يؤثرون عليهِ . فهكذا كان افرام متهاوناً بالجسد وعاشقاً ما هو افضل منهُ واجلّ ومن هاهنا حصل لهُ مساواة الابسطليين (الرسل)

وما لي اذكر تواضعهُ مع انَّ اقوالهُ ومؤلفاتهِ تنادي بانَّ هذه كانت من اكبر فضائله يهتمُّ بها اكثر من كل شيء . فهيهات ان يكون نوى تزهُّداً او تكون رجلهُ عثرت بالمجد البشري وهو يلازم البكاء بغير انقطاع (٨٠٦) ويأكل الرماد مثل الخبز (مز ١٠١ : ١٠) ويمزج كأسهُ بالبكاء . وكان اذا سمع في حياتهِ احداً يمدحهُ سخط عليهِ وتبدَّل لونهُ غيظاً واطرق الى الارض فينطف العرق منهُ وينقطع كلامهُ من شدَّة الحياء الذي كان يعقد لسانهُ . وعند انصرافهِ من هذا العالم الى الحياة الدهريَّة الباقية زجر من يتعرَّض لمديحهِ فقال : لا تلحنوا لحناً على افرام ولا تمدحوهُ ولا تكفنوهُ بثوبٍ نفيس ولا تجعلوا لجسمي قبراً خاصاً فاني قد عاهدتُ الله ان يكون مضجعي مع الغرباء لأني كنت في العالم غريباً كما كان آبائي (مز ٣٨ : ١٣) . فلك ايها السامع على عظم تواضعهِ دلائل كثيرة صادقة

١١ ترحُّم افرام على المحتاجين وغيرتهُ على خلاص نفوسهم

واما رحمة افرام وتحنُّنه على القريب فانهُ ليس فقط كان ممارساً لها بل اصبح فيهما (٨٠٧) معلماً . ولانَّ زهدهُ بالمال لم يسمح لهُ ببذلهِ على المحتاجين فانهُ جعل العوض من ذلك انهاض الناس وتحريكهم بمواعظهِ المترادفة على اعمال الرحمة . فانَّ كلامهُ كان كمفتاح مصوغ من الله يفتح بهِ خزائن الاغنياء ليفرّقها على المحتاجين . وكانوا اذا شاهدوهُ يخال لهم مشاهدة الملائكة فيحرّكهم نظرهُ على التحنُّن ويجتذب من فيهِ العتوّ والغلظة الى الرأفة . وما كان احدٌ ممَّن غلبت عليهِ القحة يستطيع ان يبصرهُ ولا يستحي بل يحسّن سلوكهُ ويزيد تجمُّلاً

ولعلَّ احداً يظنّ انَّ القديس افرام بانقطاعهِ الى هذه الاعمال الفضلى الكثيرة لم يبقَ لهُ فراغٌ ليهتمَّ بامور الكنيسة . كلَّا فانهُ بتفرُّغهِ لدرس الكتب الالهيَّة وتعمُّقهِ في اسرار الديانة لم يتمكَّن فقط من ارشاد الناس ووعظهم بل امكنهُ ايضاً ان يميّز الآراء (٨٠٨) الصائبة ويقيم الحجَّة على من يخالفها . فكان بتعليمه يوضح العقائد الدينيَّة ويُحسن شرحها وبمعرفتهِ لآراء الهراطقة يوبّخ المبتدعين ويبكتهم ولا تخمد غيرتهُ في ذلك اصلاً

ومما يبيّن شدّة غيرته انّ ابوليناريوس المبتدع الفاسد الآراء القليل العقل كان صنّف تأليفين ندّد فيهما على التعاليم المستقيمة ودفعها الى امرأة كانت تخدمهُ في اللذّات لتحتفظ بهما. فانتهى خبرهما الى افرام الكبير فتريّا بزيّ اصحاب ابوليناريوس وقصد المرأة وحمل اليها بركة السيّاح ثمّ سألها ان تعيرهُ المصحفين ليقرأهما وينتفع بما ألّفهُ المعلّم حتّى يقاوم بذلك معشر المعادين للدين القويم. فتسهّل لهُ بذلك الوصول الى ما ارادهُ واجابتهُ المرأة الى ما سأل (٨٠٩) ثمّ دفعت لهُ المصحفين لظنّها انهُ من حزب ابوليناريوس وطلبت ان يعيدهما اليها. فلمّا حصل عليهما تشبّه هذا القديس الكبير بيعقوب الاب الاوّل في حيلتهِ على اخيهِ العيس لمّا ربح بكوريّتهُ. فاخذ كلّ ورقة من المصحفين وألصقها بالاخرى بغراء السمك ثمّ اعادهما الى المرأة التي لم تُبصر وقتئذٍ الى باطنهما. فلمّا مضى على هذا ايّام قلائل اوعز الشيخُ الالهيّ الى قوم من الارثذكسيين ان يستدعوا ابوليناريوس الى المناظرة فاجاب الى ذلك واثقاً بما كتب في المصحفين. فلمّا حضر للمناظرة وكان ابوليناريوس قد طعن في السنّ دفع المصحفين الى بعض اصحابهِ ليجاوبوا عنهُ لكنّهم لمّا ارادوا فتحهما لم يقدروا على ذلك بسبب التصاق (٨١٠) اوراقهما. فلمّا رأى شيخهم ذلك تغيّر لونهُ خزياً واضطربت نفسهُ وانصرف عن المجمع وصُرع وأشرف على الموت من قلّة صبرهِ على العار. فهذه كانت صورة ابينا هذا الكبير المعلّم افرام في غيرتهِ على الدين

١٢ وداعة القديس افرام وسلوكهُ في المناظرات

واما الدعة واللين فكان افرام يستعملها عادةً الّا في اوان المناظرة. فانّهُ عند الجدال كان يظهر الشهامة والحزم الشديد. وكما انهُ كان يستحقّ الثناء في صومهِ وصلاتهِ ودماثة طباعهِ في معاملاتهِ مع القريب كذلك كان في وقت المناظرة ودفاعهِ عن الايمان اهلًا بالمديح لبسالتهِ واشتدادهِ على المراطقة. فكان كالصيّاد الحاذق الذي تُمتدح غارتهُ في صيد الوحوش الكاسرة. وكمدبّر السفينة الذي تتبيّن فراهتهُ عند مقاومتهِ الريح العاصفة. وكالطبيب الحاذق الذي يُعرف فضلهُ اذا ما أنقذ المرضى من الآلام التي يصعب برؤها. وكالمقاتل الباسل الذي تتّضح شجاعتهُ عند مصادمتهِ مصافًا قويًا (١١١). فهكذا هذا القديس الغيور والحريص على حسن العبادة فانّما عُرف فضلهُ في مناضلة المقاومين للحقيقة

وبالحقيقة نقول انهُ لم يكن نوع من انواع الفضيلة الّا وقد بلغ فيهِ افرام ما لم يبلغهُ غيرهُ فيجوز ان نشبّه نفسهُ بعينٍ تدرُّ مياهاً صافية حلوة يستعذبها شاربُها وتُخصب ما يُسقى بها . او نشبههُ ببستان جميل الازهار يانع الثمار طيب الروائح . او بسماء باسطة رواقها على الارض مزيّنة بعدّةٍ من الكواكب . او بذلك الفردوس الذي كان في عدن ذي الاغراس النامية المنصوبة فيهِ الاشجار المثمرة الّا انهُ ليس فيهِ سبيلٌ الى دخول الحيّة الخبيثة . فعلى مثال هذه التشابيه تصوّرت لنا نفس افرام السعيدة وما خُصَّت بهِ من انواع الفضائل (٨١٢) المزيّنة لها

١٣ اقتداء افرام بالقديسين والآباء

وقد كان درس هذا القديس العجيب متجهاً في كل حال الى هذا الغرض الوحيد ان يجمع في نفسهِ من الفضائل ما كان يراهُ متفرّقاً في غيرهِ من القديسين . فاخذ من هابيل اوّل الصدّيقين قربانهُ المقبول ولم يقدّم مثلهُ ذبائح اغنام او شحماً او غير ذلك ممّا كان يقدَّم في العهد القديم بل قدَّم ذبيحة ناطقة لا دم فيها قدّم عبادتهُ كمحرقة اصعدها بنار الطهارة والنسك فانتقل بها مثل هابيل الى الحياة الابديّة دون ان يتمكّن عدوّ البشر من قتلهِ . وقد اشبه اخنوخ برجائهِ ولم يقتنع بان يدعو الله فقط مثلهُ وان لم ينتقل مثلهُ من الارض الى الفردوس فقد انتقل من أخلاط الهيولي الى الحياة بالروح . واماً نوح فلم يشبههُ افرام بخلاص الجنس في سفينةٍ صغيرة من خشب بل اوثق نفسهُ من كلّ ناحيةٍ (٨١٣) حتّى امكنهُ ان يخلّصها من عطب العالم دون ان يفقد شيئاً ممّا اقتنتهُ من الفضائل

وقد اشبه ابرهيم بمعانٍ كثيرة منها الامانة والدعة ومحبّة الله ولاسيّما في هربهِ من الدنيا ومن اهلهِ واقاربهِ كما هرب ابرهيم من ارضهِ وقد قرّب بإماتة جسدهِ واعضائهِ ضحيّة تنسّمها الله كضحيّة ابرهيم لابنهِ الوحيد . وبها تشبّه ايضاً باسحاق بالموت الطوعيّ الذي رضي بهِ لمّا علم انّ والدهُ تصد ذبحهُ . الّا ان ضحيّة ابرهيم لم تتمّ اماّ افرام فصار كاهناً لنفسهِ مثل السليحيين فكان كلّ يوم يتجرّد لله بحياة الروح ويقدّم لهُ اماتة جسدهِ بدلاً من روحهِ كما قدّم ابرهيم الكبش بدلاً من ابنهِ

اماّ يعقوب فقد تشبّه بهِ اذ قاوم المنشقّين عن الكنيسة ونزع عنهم حقوق بكوريّتها كما فعل يعقوب بالعيس اخيهِ واثبتها للبيعة الحقيقيّة (٨١٤) . وان لم يرَ مثلهُ

سلّماً بين السماء والارض فانّهُ رأى عمود نسرار الله فادرك غوامضها . وكأني بهِ ايضاً صار شبيهاً بيعقوب في بركاتهِ التي منحها تلاميذهِ قبل وفاتهِ كما فعل يعقوب لبنيهِ وكذلك قد اشبه يوسف بطهارتهِ وعفّتهِ كما انه على مثالهِ وزّع بُرّ التعاليم الخلاصيّة على الناس متشبّهاً بيوسف في توزيعه الغذاء على اهل مصر

اما موسى فجرى افرام على آثارهِ وهرب الى البريّة من فرعون العقلي وابصر الله في عزلتهِ بمناجاتهِ تعالى ثمّ هدى شعباً كثيراً بتعليمهِ وفوائدهِ واحتال على كتب الهراطقة كما احتال موسى على غنى اهل مصر وشقّ مثلهُ بحراً مالحاً لا يُشرَب ألا وهو بحر الكفر فاجتاز بالشعب الارثذكسي وخلّصهُ من غمرات التجديف وغرق (٨١٥) ذوي فرعون وهم اولاد الكفّار وان شئتَ فقل عماليق او الهراطقة اجمعين . ومثل موسى اخذ من يد الرب ناموس الحقّ وسلّمهُ الى المؤمنين . وقد رأى مثلهُ رَسم الخباء في الطور لا خباء هيولياً بل الخباء الرهيب الذي سيقف فيه البشر يوم الدين . وقد عُني مثلهُ في تقديس الكهنوت بما وَضعهُ من الوصايا لقداسة الكهنة . وقد اخرج مثلهُ من القلوب الحجَرة كانفجار مياه التوبة والندامة ولم يكن ذاك المنّ السماوي الذي قات بهِ موسى شعب الله الّا صورة ضعيفة لاقوالهِ التي غذا بها النفوس ودلّ بها الى ذلك الخبز الجوهريّ الذي ارسلهُ الآب لخلاص العالم وهدانا الى طريق السماء

ولو اردنا ان نقابل بينهُ وبين غير هؤلاء من افاضل القدماء لوجدنا لهُ من المآثر ما لا ينقص بها عن واحد منهم . شقّ يشوع بن نون نهر الاردن وفتح افرام (٨١٦) بتعليمهِ ايدي الاغنياء المقفلة وبسطها للعطاء على شعب ارض الميعاد العلويّة اي ملكوت السماء . خصّ نفسهُ مثل صموئيل لخدمة الله منذ صباه فسمع مثلهُ صوت الله . قرّع كايليّا كهنة السوء وأوقد في الذبيحة النارطقة لا دفعةً واحدة بل دفعات عديدة النارَ الالهيّة . وبمركبة نار من الفضائل صعد مثلهُ الى السماوات . واستغنى مثل اليشع بنعمة الروح المضاعفة واستأهل مثل الانبياء لبصر الالهيّات

بل انني لا اتوقّف عن تشبيههِ بذاك الذي كان واسطة بين الناموس والنعمة اعني بهِ يوحنّا المعمدان السابق فانّهُ قد سكن مثلهُ البريّة وصارت اليهِ مثلهُ كلمة الله فنادى مثلهُ ايضاً بالتوبة وعلّم القادمين اليهِ ان يعترفوا بخطاياهم . ومثل بولس الاناء المصطفى صبر على كثير من التجارب وما رضي بزرع بَذْر التوبة بل بالغ

مثلهُ في التبشير بالامانة(٨١٧) . وما لي أُطيل الكلام لتشبيهِ بكل واحد من القديسين وقد ملأ المسكونة كلها باعمالهِ الفاضلة . فالاطناب بالكلام عند وجود الاعمال يُنقص شيئاً من فضلها اذ يقصر اللسان عن استيفاء محاسنها

٤٠ انتقال افرام الى دار البقاء

الَّا انهُ يحسن بنا ان نزيد في الكلام شيئاً يلتذُّ السامع بذكرهِ وذلك عجيبةٌ وقعت في ساعة وفاتهِ . فان هذا الرجل الالهيَّ لما حان وقت انصرافهِ الى النعيم تقدَّم الى الحضور بان لا يكفنوهُ بكفن نفيس وان فكر احد منهم بذلك فلا يُخرج فكرهُ الى الفعل بل يدفع ما اعدَّهُ للمساكين . وكان هناك رجلٌ من الاعيان قد اعدَّ لكفن القديس ثوباً فاخراً فلمَّا سمع وصاتهُ هذه قال في نفسه : انني بدلاً من الثوب اعطي المساكين ثمنهُ فقط . فصرعهُ للوقت الشيطان ووقع طريحاً قدَّام (٨١٨) سرير القديس والزبد يخرج من فمهِ فالتفت اليهِ رجل الله المتحنِّن فقال لهُ : قل يا انسان ماذا صنعتَ حتَّى جرى عليك هذا العقاب . فنهض الرجل بأمرهِ وهو مضطرب من شدَّة صرعهِ واعترف بذنبهِ الذي فكَّر فيهِ فأبرأهُ الاب بوضع يدهِ على رأسهِ والصلاة عليهِ ثمَّ قال لهُ : تتمم الآن وعدك الذي كنتَ همتَ بهِ ولا تحرم المساكين ثوبك . فأثبتت هذه الآية في آخر عمرهِ سموَّ قداستهِ في اعين الحضور وزادتهم غيرةً في ممارسة الفضيلة

ثمَّ بعد هذا انصرف افرام الى ميتا الملكوت الدهريَّة حيث لا موت ولا اضطراب وانضمَّت الى القديسين نفسهُ الطاهرة المقبولة عند الله فاستقرَّت في المساكن السماويَّة حيث مراتب الملائكة حيث مجموع الآباء وصفوف الانبياء وكراسيّ المليحين حيث سرور الشهداء وجذل الابرار وبهاء المعلمين (٨١٩) ومحافل الأبكار ونغمة المختارين فالى ذاك المقام الجليل والمكان السعيد ارتقت نفس ابينا افرام وقد تقدَّمتهُ في صعودهِ الى الله فضائلهُ السامية التي جمعها في عمرهِ فأزرتهُ كلُّ واحدة منها ما اكسبتهُ من الحسن والجمال الذي لا يدركهُ البصر ولا يحصرهُ القول . فتقدَّمت الكبيرة من فضائلهِ وهي المحبَّة فقالت : انظري ايتها النفس المحبوبة هذا النعيم الذي بلغتهِ بممارستي . ثمَّ تبعها التواضع قائلاً : انك بواسطتي حيث انتصبتِ في العالم قد ارتفعتِ الآن الى هذه السعادة العظمى . وهكذا تقدَّمت بقيَّة الفضائل يثنين عليهِ

لكونهِ باشرهنَّ في حياتهِ ويرينهُ ما نالهُ من الجزاء بسببهنَّ

فما اشهى هذا الانصرافَ من العالم الذي يتمنَّى كلُّ واحد منَّا ان يصل الى مثلهِ. ويا لها من ميتة لا تحتاج الى دموع. وانفصال يفيد اجتماعاً ابدياً. ونقلة لا تُولي صاحبها (٨٢٠) ندامةً. ويا تجنيزاً لا يخلف وراءهُ حزناً بل سلواناً وتعزيةً بذكر فضائل الميت بينما يُخلف غيرهُ الحزن والكآبة . وذلك لأن موت القديسين يوجب السرور ويسبب الافراح وليس موتهم سوى ارتقاء الى مجدٍ اثيل ومقام شريف

فهذا لك منَّا يا افضل الآباء ويا معلّم المسكونة . اقبل عذرنا اذ تجاسر اللسان ان يهديك هديَّة لا تفي باستحقاقك . فانَّنا لم نقدم على مدحك لحاجتك اليهِ مع بُعدهِ عن وصف فضلك السامي وانَّما طلبنا بهِ منفعة الاحياء بعدك ليكون لنا قدوة وباعثاً الى الصلاح . وقد دفعتنا اليهِ اسبابٌ أخر منها انقاذك لرجل شريف من اخطار وقع فيها فهو جرّأني على التعرُّض (٨٢١) لمديحك وذلك انهُ كان وقع في اسر قوم من بني اسمعيل ولم يهتدِ الى النجاة منهم ليعرد الى وطنهِ فالتجأ اليك واستعان بك فما خاب املهُ فيك وبعد ان كان حصل في شدَّة عظيمة حتَّى أيس من الحياة ولم يكن يتوقَّع غير الموت صرخ اليك : « يا مار افرام أَغِثني » فأسرعت الى معونتهِ وارجعتهُ الى وطنهِ سالماً بنعمة شفاعتك . فهذا الرجل الوجيه هو الذي دفعني الى القاء خطابي في مديحك . فان كان كلامي قد قام بالواجب نحوك فلك يجب الشكر والمنَّة وان كان على خلاف ذلك قد بقي بعيداً عمَّا تستحقُّ فانت ايضاً لسموّ فضلك سبب قصوري وقد كنت في حياتك تحجب اعمالك وتصدُّ كلَّ من يقصد مديحك . وعلى كلّ حال (٨٢٢) قد وفينا دَيننا بحسب الطاقة ونحن على ثقةٍ بانك لا تذمُّنا ولا تصرف وجهك عن الشديدي الحرارة في محبَّة ابوَّتك بل تقبّل كلامنا كما يتقبّل الوالدان مناغاة اطفالهما عند وقوفك قرب المذبح الالهي وخدمتك للثالوث الأقدس مع الملائكة فاذكر جماعتنا واسأل الصفح عن خطايانا لنصل الى نعيم الملكوت الدهرية بيسوع المسيح ربّنا الذي لهُ المجد مع ابيهِ الذي لا ابتداء لهُ والروح القدس الالهي الآن وابداً الى دهر الداهرين آمين .